قصة قصيرة

لعبة الفساد

سُوقُ الخَطِيئَةِ المُعَلَّبَةِ

د. عقيل محمود الخزعلي

{ملخص القصة}:

تحكي قصة (لعبة الفساد...سُوقُ الخَطِيئَةِ المُعَلَّبَةِ) عن مدينةٍ تُحوّل الفساد إلى عرضٍ جماهيريّ، تُصنَع فيه وجوه الفاسدين كما تُصنَع السلع: (تُزرَع، تُغذّى، تُغلَّف، ثم تُعرَض لحظة الحاجة كي يفرّغ الناس غضبهم في ضحيةٍ واحدة، بينما تبقى اليد الخفيّة التي صنعت الفساد خارج القفص) .

في قلب الحكاية يقف نائل، ناسخ الأرشيف، حين يكتشف سجلًّا سرّيًّا يكشف أنّ الفاسدين ثمارٌ مزروعة في حقلٍ تديره غرفة تحكّم، وأنّ الفضائح تُدار كمنتجاتٍ

عندها يسقط سحر السوق، وتولد عدالةٌ أعمق: عدالة تحاكم الجذر قبل الثمرة، واليد قبل الوجه، وغرفة التحكّم قبل القفص.

كلما صفّقت المدينة لفاسدٍ ساقط، ازداد الظلُّ طولًا خلف غرفة التحكّم.

ـ حكايةٌ عن الغضب عندما يُباع، وعن السؤال حينما يستعيد طريقه إلى الجذر ـ

سُوقُ الخَطِيئَةِ المُعَلَّبَةِ

الواجهة

في مدينةٍ تُدعى الواجهة، كان الغروب يفتح سوقاً عجيباً تحت قبةٍ من زجاجٍ أسود. يدخل الناس منهكين من طوابير الخبز، ومن وجع الأجور، ومن خوفٍ ينام معهم في الوسائد، فيجدون على الجدران مرايا ضخمة تُعيد وجوههم غاضبةً أكثر، جائعةً أكثر، صغيرةً أكثر. وفي صدر القاعة منصةٌ عالية، فوقها ميزانٌ ذهبيّ يلمع كأنه شمسٌ مصطنعة، وعن يمينها كرسيّ فارغ يسمّونه كرسيّ المهندس، وعن يسارها منبرٌ يقف عليه كاهن الإجماع، رجلٌ نحيلٌ يلبس عباءةً من نشرات الأخبار، ويمسك عصاً محفوراً عليها: «الغضب ثروةٌ عندما نجد له وجهاً واحداً».

كان أهل الواجهة يعرفون السوق باسمٍ واحد: سوق الخطيئة المعلّبة. فمنه تخرج وجوه الفاسدين كما تخرج القوارير من معمل العطر؛ مصقولةً، مختومةً، مصحوبةً بحكايةٍ جاهزة، وبصورةٍ مُكبَّرة، وبموسيقى ترفع النبض كي يشبه التصفيق. يجيء الناس وفي صدورهم أسئلةٌ عن حقٍّ ضائع، وأمنٍ مهدور، وكرامةٍ منزوعة، فيخرجون ومعهم اسمٌ واحدٌ يصرخون به حتى تتعب حناجرهم، ثم يعودون إلى بيوتهم معتقدين أنّ العدالة عَبرَّت عنهم، وحيّتْهم من النافذة.

ما كان أحد يرى المهندس. قيل إنه رجلٌ من لحم، وقيل إنه مجلسٌ من ظلال، وقيل إنه خريطةٌ ممدودةٌ على طاولةٍ سرية، تُحرّك البشر كما تُحرَّك قطع الشطرنج. كان المهندس يظهر في الآثار: في رخصةٍ تُمنح فجأةً لرجلٍ مجهول، في قرضٍ يكبر في ليلةٍ واحدة، في أرضٍ عامةٍ تصير قصراً، في قانونٍ يُفصَّل على قياس جيبٍ واحد، في كاميرا تغفو ساعة السرقة ثم تصحو ساعة الفضيحة.

أمّا كاهن الإجماع فكان وجهاً مألوفاً. إذا توترت المدينة، فتح منبره وأطلق عباراتٍ مُلمّعة: «الفساد عدوّكم، وها نحن نأتيكم برأسه». كان يعرف أنّ الغضب نهرٌ جامح، إن تُرك في مجراه وصل إلى القلعة، وإن وُجّه نحو حفرةٍ قريبة صار طيناً حول قدمٍ واحدة. لذلك كان يصنع من كل فاسدٍ جسراً يعبر عليه النظام نحو يومٍ جديد.

في تلك المدينة عاش نائل، ناسخٌ شابّ في أرشيف السوق. كان عمله أن يرتّب الأوراق قبل عرضها على الشاشات: [صور القصور، فواتير الساعات، رسائل الغرام، عقود الموانئ، حساباتٍ بأرقامٍ تلمع كالخناجر]. كان نائل ينسخ كل شيءٍ بخطٍّ رشيق، ثم يضعه في علبةٍ حمراء اسمها «وجبة الغضب». ومنذ طفولته، كان يسمع أمّه تهمس عند كل محاكمةٍ معروضة: «يا بنيّ، سقوط فاسدٍ واحدٍ ينعش القلب ساعة، ومعرفة الشجرة التي أنبتته تنقذ العمر».

البذور

ذات ليلة، تأخر نائل في الأرشيف. كانت القبة خالية، والمرايا مُطفأة، والمنصة غارقةً في عتمةٍ ثقيلة. وبينما كان يغلق خزائن الورق، رأى درجاً صغيراً في ظهر الميزان الذهبيّ. فتحه، فوجد سجلاً من جلدٍ أسود، على غلافه كلمةٌ واحدة: «البذور». ارتجفت يده. قلب الصفحات، فقرأ أسماء رجالٍ ظهروا في السوق قبل أعوام، وأسماء رجالٍ سيظهرون بعد أشهر، وأمام كل اسمٍ خانةٌ بعنوان: «موعد النضج».

قرأ تحت <u>الاسم الأول</u>: «يُمنح امتياز الميناء، تُترك له بوابة الجمارك، يُصوَّر قصره عند اكتمال الرخام، يُحصد عند انحراف الولاء». وتحت <u>الاسم الثاني</u>: «يُفتح له مصرفٌ صغير، تُضخّ فيه قروضٌ رخوة، تُطلق حوله شائعات العشق، يُقدَّم للجمهور عند موسم التقشف». وتحت <u>اسمٍ ثالث</u>: «يُرفع إلى الوزارة، تُدار حوله شبكة العقود، يُربط بجهةٍ بعيدة عند حاجة القلعة إلى خوفٍ جديد».

فهم نائل عندها أنّ الفاسد في الواجهة ثمرةٌ مزروعة، تنمو في حقلٍ محروس، تُسقى بالصمت، وتُشمَّس بالامتياز، ثم تُقطف حين يصير طعمها نافعاً. لم يكن السوق ينتظر الخطيئة كي تقع؛ كان يزرعها في تربةٍ مختارة، يربّيها حتى تسمن، ويحسب يوم الذبح كما يحسب التاجر يوم المزاد.

الحصاد

في صباح اليوم التالي، اجتمعت المدينة حول إعلانٍ أحمر: «محاكمة القرن». كان الرجل المختار يُدعى مرجان السدّ. قبل أعوام، وصل مرجان إلى الواجهة بثوبٍ متواضعٍ وابتسامةٍ واسعة. منحوه عقداً لترميم سدٍّ يحمي الأحياء الفقيرة من الفيضان. صار العقد عشرة، ثم صار مصرفاً، ثم صار قناةً، ثم صار قصراً على تلّةٍ تعلو بيوت الغرقى. وحين جاءت الأمطار، انهار السدّ كخبزٍ مبلول، وابتلعت المياه سوق الخضار، ومدرسة البنات، ومقبرة الجنود، وأدوية المرضى. بكَت المدينة، ثم انتظرت وجهاً تُعلّق عليه نحيبها.

ظهر كاهن الإجماع عند الغروب. رفع عصاه، فانقسمت الشاشة إلى ثلاث نوافذ. في الأولى قصر مرجان؛ أعمدةٌ بيضاء، نافوراتٌ تتثاءب، سياراتٌ نائمةٌ تحت أغطيةٍ حريرية. صاح الكاهن: «وحش القصر». فزمجر الجمهور. في الثانية رسائلُ عاطفيةٌ، صورٌ مُقتطعة، ضحكاتٌ مُجمّدة. صاح: «عاشق الفتنة». فاشتعلت العيون فضولاً واشمئزازاً. في الثالثة خريطةٌ ملونةٌ وسهمٌ عابرٌ للبحر، وحسابٌ غامضٌ في جزيرةٍ بعيدة. صاح: «وجه الخيانة». فارتفعت القبضات كأنها غابةٌ من حجر.

العلبة

كان مرجان يقف في قفصٍ زجاجي، يتصبّب عرقاً. أراد أن يتكلم عن الختم الذي فُتح له، وعن التوقيع الأكبر من توقيعه، وعن الكاميرا التي نامت ساعة انهيار الضمير. غير أنّ الصوت انقطع عنه كلما قال: «الذي أمرني...»؛ فتملأ الموسيقى القاعة، وينهض كاهن الإجماع صارخاً: «اسمعوا صرير العدالة». فيصفق الناس، ومع كل تصفيقةٍ كانت جدران غرفة التحكّم تزداد سماكة.

وقف نائل في آخر القاعة، والسجل الأسود تحت معطفه. رأى كيف صارت الجريمة مشهداً، وكيف صار دم الغرقى زينةً في نشرة المساء، وكيف صارت دموع الأمهات مادةً لبيع العطور والحبوب والمنظفات. كان الباعة يتنقلون بين المقاعد يحملون فناجين القهوة وأقنعةً صغيرةً على هيئة وجه مرجان. الأطفال يضحكون، والآباء يشتمون، والشاشات تحصي العيون المعلّقة بها كأنها أكياس قمح.

عند منتصف العرض، تقدّم رجلٌ من الجمهور وسأل بصوتٍ مرتجف: «من وقّع العقد الأول؟». التفت الناس نحوه دهشين، فابتسم الكاهن ابتسامةً رقيقة، وأشار إلى حارسٍ يرتدي خوذةً زرقاء. بعد دقائق، ظهر على شاشةٍ جانبية تقريرٌ عاجل: «مندسّ يثير الفوضى خدمةً للفاسدين». تغيّر غضب القاعة في لحظة. صار السؤال نفسه تهمة، وصار صاحب السؤال دليلاً على حاجة المدينة إلى قبضةٍ أشدّ. عندها فَهِمَ نائل المرحلة الثالثة من السجل: تفكيك الثقة حتى يطلب الخائفون قيدهم بأيديهم.

السؤال الممنوع

في الصفحة الأخيرة من سجل البذور، وجد نائل رسماً لغرفة التحكم. كانت في عمق السوق، خلف مرآةٍ عظيمةٍ تُرى منها القاعة كلّها. هنالك يجلس المهندس، وحوله صانعو الخوف، ومحاسبو الانتباه، وكتبة التبرير. أمامهم عدّاداتٌ تقيس نبض الجماهير: [مقدار الغضب، درجة الفضول، شحنة الحسد، استعداد الناس لقبول الحارس على الباب، ولوازم الحصار، وعدد المرات التي قيل فيها اسم مرجان خلال ساعة]. كل عدّادٍ يرتفع، تتحول قيمته إلى مالٍ ونفوذٍ وصمتٍ عام.

غرفة التحكّم

كتب المهندس في هامش الرسم: «عند امتلاء القاعة، يربح السوق مرتين؛ مرةً من غضب الناس، ومرةً من خوفهم من غضبهم».

شعر نائل أنّ المدينة موضوعةٌ داخل قنينة؛ (الهواء محسوب، الصراخ محسوب، الأمل محسوب). تذكر أمّه، وتذكر السدّ المنهار، وتذكر أسماء الغرقى التي اختفت تحت صور القصر. ثم عرف أنّ فضح مرجان وحده جدارٌ آخر في المتاهة، وأن السؤال الأوسع مفتاحٌ صغيرٌ يصل إلى باب كبير.

في الليلة التالية، حين أعلن الكاهن جلسة النطق بالحكم، تدافع الناس إلى السوق حتى غصّت القبة بأنفاسهم. صعد الكاهن إلى المنبر، ورفع عصاه، وانحنى الميزان الذهبيّ كأنه يتهيأ لابتلاع رجلٍ جديد. قال بصوتٍ مدهونٍ بالخشوع: «اليوم نطهّر المدينة». عندها انطفأت الشاشات كلها دفعةً واحدة.

خفق قلب القاعة. تلاشت صور القصر، واختفت رسائل الغرام، وسكتت الموسيقى. ثم ظهرت على القبة عبارةٌ كتبتها يدٌ خفية: «من زرع مرجان؟». ارتجّت المقاعد. ظهرت بعدها صفحةٌ من سجل البذور: [الامتياز الأول، التوقيع المخفي، أسماء الوسطاء، محاضر الصمت، أوامر إطفاء الكاميرا، موعد الحصاد، خطة التغليف، جدول الإعلانات المصاحبة، بندٌ صغيرٌ بعنوان: «تصريف المنتج بعد انتهاء الصلاحية»].

حاول الكاهن أن يصرخ، غير أنّ صوته خرج كخشخشة ورقٍ محروق. حاول الحراس اعتقال الظلال على الجدار، غير أنّ الأسئلة كانت قد سبقتهم إلى صدور الناس. من الصفوف الخلفية ارتفع صوت امرأةٍ عجوز: «أين صاحب الختم؟». تبعه صوت عاملِ مبللٍ برائحة النهر: «أين من باع السدّ قبل أن ينهار؟». ثم صوت طفلةٍ كانت تحمل صورة أختها الغارقة: «من جعل دمنا إعلاناً؟».

لم تسقط القبة في تلك الليلة. الذي إنهار في البدء كان التصفيق. توقفت الأيدي في الهواء، كأنها اكتشفت أنّها كانت تعمل أجراساً على أبواب القلعة. نظر الناس إلى مرجان، فرأوا مذنباً صغيراً، ثم نظروا إلى المرآة السوداء خلفه، فرأوا شبكةً طويلةً من المكاتب والأختام والحراس والشاشات. صار القفص الزجاجي ضيقاً على رجلٍ واحد، واتسعت التهمة حتى صارت بحجم المدينة المخفية داخل المدينة.

ظهر المهندس أخيراً في انعكاس المرآة. لم يكن له وجهٌ كامل؛ عينٌ من مصرف، وفمٌ من نشرة، ويدٌ من قانون، وظلٌّ من حارس. أدرك الناس سبب خفائه: [وجهه مقسومٌ في وجوهٍ كثيرة، يلبسها وقتما يشاء، ويخلعها حين يستدعي السوق ضحيةً جديدة]. رفع المهندس إصبعه، فأمر الشاشات بالعودة إلى صور القصر، غير أنّ الجمهور صار ينظر إلى ما وراء الصور. أمر الكاهن بإعادة الموسيقى، غير أنّ آذانهم صارت تسمع صرير الخيوط. أمر الحراس بتشديد الطوق، غير أنّ الخائفين أدركوا أنّ الطوق صُنع من خوفهم.

تقدّم نائل إلى المنصة، ووضع سجل البذور على الميزان. مال الذهب نحو الورق، وانطفأ بريقه الكاذب. قال نائل بصوتٍ هادئٍ سمعته القبة كلها: «الفاسد وجهٌ معروض، ومنتجه الحقيقي نظامٌ

يصنع الوجوه، يسوّقها، يلتهمها، ثم يزرع غيرها. العدالة التي ترى الوجه وتغفل اليد عمياء مأجورة. والسوق الذي يبيع غضبنا يسرق قدرتنا على الفعل».

لم يهتف الناس. الهتاف القديم كان جزءاً من اللعبة. مشوا بصمتٍ نحو أبواب القبة، وفتحوا المصاريع، فدخل هواء النهر، ومعه رائحة الطين، ونداء الباعة الحقيقيين في الشوارع. خرجوا جماعاتٍ صغيرة، يحملون نسخاً من سجل البذور، يقرؤونها عند أبواب المدارس والمصارف والمحاكم والموانئ. وفي كل حيّ كان سؤالٌ واحدٌ يتحول إلى مفاتيح كثيرة: [من زرع؟ من غطّى؟ من روّج؟ من استفاد؟ من حوّل الجريمة إلى عرض؟!].

خروجٌ من السوق

ومنذ تلك الليلة، فقد سوق الخطيئة المعلّبة أجمل بضاعته: (الجمهور المأخوذ بالسحر). بقي الفساد موجوداً، وبقي الفاسدون يطلّون أحياناً بأقنعةٍ جديدة، غير أنّ المدينة صارت تنظر خلف القناع قبل أن تصفق. كان كاهن الإجماع يقف على منبره، يلوّح بعصاه، فيرى أمامه عيوناً تسأله عن صاحب الخيط، وعن غرفة التحكم، وعن الشجرة التي تَنبتُ منها الثمار المسمومة.

أما نائل، فقد عاد إلى الأرشيف، وعلّق فوق الخزائن ورقةً صغيرة كتب عليها: «كل فاسدٍ ثمرة، وكل ثمرةٍ تسأل عن جذرها». ثم أطفأ مصباحه، ومضى نحو الفجر. كان يعلم أنّ الخديعة الكبرى تحبّ الضوضاء، وأن الحقيقة تمشي غالباً بخطى هادئة. وفي آخر الممر، سمع المدينة تتعلم اسماً جديداً للعدالة: [أن تُحاكم اليد التي زرعت، والحقل الذي صمت، والسوق الذي باع، قبل أن تحتفل بسقوط الثمرة!].